بعض أخباره

قابلنـا بين جميل وعمر بـن أبى ربيعة فى أكثر من خصلة واحدة من خصـال الفن والحياة، إذ الحقيقـة أنهما متقابلان يوشك أن يتناظرا فى جميع الخصال: بداوة وحضارة، وعكوف على محبوبة واحدة وتشـبيب بجميع الحسان، وعاطفة تغلب فيها الحاسـة الإنسـانية حيث كانت، وعاطفـة تغلب فيها حاسـة الطبقة الاجتماعية التى منها الشاعر، وكلا الشاعرين صادق فيما يمثله أو فيما يحكيه.

وإنهمـا ليتقابلان فـى أخبارهمـا كما يتقابـلان فى تلك الخصال التى أشرنا إليها.

فأخبار عمر مفهومة من ديوانه لأنه ينظم فحواها ولا يدع منهـا إلا بعض التفاصيـل، وأخبار جميل تحتـاج إلى الرواة والناقلين، لأن الذى نظمه منها فى ديوانه قليل الغناء فى باب الأخبار، وإنما يدل على سيرته من طريق التفسير والتعقيب.

واختلاف العاطفتين يتأدى بنا إلى علة الفارق بينهما فى هذه الخصلة كما يتأدى بنا إلى علل الفوارق بينهما فى جميع الخصال.

فابن أبى ربيعة كان له فى كل يوم خبر وعلاقة، وكان همه الأكبر أن يتحدث إلى الحسان ويتحدث عن الحسان. فلا عجب فى اتساع ديوانه للأخبار المنظومة التى هى متعته وهجيراه.

أما جميل فعاطفته خبر واحد، إن لم ينظم فى الحنين والشكوى فلا نظم عنده، ولا تأتيه الأخبار التى ينظم فيها إلا حين يطرأ طارئ يغير مجرى تلك الحياة الرتيبة، كما قال حين خرج عليه أهل بثينة:

ولست بناس أهلها حين أقبلوا
وجالوا علينا بالسيوف وطوّفوا
وقالوا جميل بات فى الحى عندها
وقد جردوا أسيافهم ثم وقفوا

أو كما قال حين وقف متذكرًا على الأطلال:

بينما هن بالأراك معا إذ بدا راكب على جملة
فتناظرْن ثم قلن لها أكرميه حييت فى نزله

ولا غنى مع شعره عن نتف من أخباره التى تناقلها الرواة، وهى مما يزكيه شعره ويثبته فى الجملة وإن عرضت له الزيادة

والاختراع فـــى التفصيل، وعلى هذا النحو هذه النخبة التالية من أخباره الكثيرة التـــى توخينا فيها الدلالة عليه، وتجنبنا التكرار فيما يشبه ما اخترناه.

* * *

«بين نظيرين»

لقـــى عمر بن أبـــى ربيعة جميـــلا فى طريقه إلى الشـــام، فاستنشده من شعره فأسمعه من قوله:

خليليّ فيما عشتما هل رأيتما قتيلا بكى من حب قاتله قبلى

ثم قال له: أنشـــدنى أنت يا أبا الخطاب، فأسمعه قصيدته العينية التى أولها:

ألم تسأل الأطلال والمتربعـا ببطن حُلَيات دوارس بلقعـا

فلما بلغ إلى قوله:

فلما تواقفنا وسلمت أشرقت وجوه زهاها الحسن أن تتقنعا
تبا لهن بالعرفان لما عرفنْى وقلن امرؤ باغ أكل وأوضعا[1]

(١) تعب وأسرع.

وقرّبن أسباب الهوى لمتيم يقيس ذراعًا كلما قسن أصبعا

فصاح جميل واستخذى وقال: ألا إن النسيب أُخذ من هذا، وما أنشد بعد ذلك حرفًا.

فقال له عمر: اذهب بنا إلى بثينة حتى نسلم عليها. فامتنع جميل واعتذر بإهدار السلطان دمه إن وجدوه عندها، وأشار له إلى أبياتها. فتقدم عمر حتى وقف على الأبيات وتأنَّس حتى كلم، فقال: يا جارية! أنا عمر بن أبى ربيعة فأعلمى بثينة مكانى، فخرجت إليه بثينة فى مباذلها وهى تقول: والله يا عمر لا أكون من نسائك اللائى يزعمن أن قتلهن الوجد بك، فانكسر عمر، ونظر فإذا امرأة أدماء طوالة.

«بين الأستاذ وتلميذه»

والتقى جميل وكثير فتذاكرا النسيب، فقال كثير: يا جميل، أترى بثينة لم تسمع بقولك:

يقيك جميل كل سوء أماله
لديك حديث أو إليك رسول؟
وقد قلت فى حبى لكم وصبابتى
محاسن شعر ذكرهن يطول

فإن لم يكن قولى رضاك فعلمـــى
نسيم الصبا يا بثن كيف أقـــول
فما غاب عن عينى خيالك لحظة
ولا زال عنها والخيال يـــزول

فقال جميل: أترى عزة يا كثير لم تسمع بقولك:

يقول العدا يا عَزُّ قد حـال دونكـــم
شجاع على ظهر الطريـــق مصمـــم
فقلت لها والله لو كـــان دونكـــم
جهنم ما راعت فـــؤادى جهنـــم
وكيف يروع القلب يا عـــز رائـــع
ووجهك فى الظلماء للسفر معلـم[1]
وما ظلمتك النفس يا عز فى الهـوى
فلا تنقمى حبى فما فيـــه منقـــم

ثم بكيا قطعة من الليل وانصرفا...

(١) السفر: المسافرون، والمعلم: ما يهتدون به من علامات الطريق.

«جَلَتها أو لم تجلُها؟»

كان أهـل بثينة يأتمنون عليها عجـوزًا منهم يقال لها: أم منظور، فجاءها جميل يسـألها أن تريـه بثينة. فقالت: لا واللّه، لا أفعل وقد ائتمنونى عليها. فتوعدها ليضرّنها... قالـت: المضـرة والله فـى أن أريكهـا. فخـرج مـن عندها وهو يقول:

ما أنس لا أنس منها نظرة سلفـت
بالحِجْر يوم جلتهـا أم منظـور
ولا انسلابتها خُرسًا جبائرهـا[1]
إلىّ من ساقـط الأرواق مستـور

فما كان إلا قليل حتى انتهى إليهم هذان البيتان فاتهموا أم منظور وهى تقسم لهم فلا يصدقونها!

وقيل فى رواية أخرى: إنَّ مصعب بن الزبير أنشـد هذين البيتيـن فقال: لـوددت أنى عرفت كيـف جلتها، فأخبروه أن أم منظـور هـذه حية، فكتـب فى حملها إليـه مكرمة، وسـألها عن الجلوة فقالت: ألبسـتها قلادة بلح ومخنقة بلح

(١) الجبائر: الأساور، والأرواق: جمع وروق هو الفسطاط.

واسطتها تفاحة، وضفرت شعرها وجعلت فى فرقها شيئًا من الخلوق – أى الطيب – ومر بنا جميل راكبًا ناقته فجعل ينظر إليها بمؤخر عينيه ويلتفت إليها حتى غاب عنا. فأقسم عليها مصعب لتجلون امرأته عائشة بنت طلحة مثل ما جلت بثينة، ففعلت. وركب مصعب ناقته وأقبل عليها وجعل ينظر إلى عائشة بمؤخر عينيه ويسير حتى غاب عنهما... ثم رجع.

«يتهمها ولا يُتهم بأمَة»

أشاع أهل بثينة أن جميلا إنما يتبع أمة لهم، ليدفعوا عنهم الوصمة ويصموه، فواعد جميل بثينة حتى لقيها ببرقاء ذى ضال وتحادثا ليلًا طويلًا حتى أسحرا، فاقترح عليها أن ترقد فقالت: ما شئت! على أنى خائفة أن نكون قد أصبحنا، فوسدها جانبه ثم اضطجعا ونامت، وانسل مستويًا على راحلته، وأصبحت فى مضجعها فرآها الحى راقدة عند مناخ راحلة جميل، وفى ذلك يقول:

فمن يك فى حبى بثينة يمترى فبرقاء ذى ضال علىّ شهيد

«لغة واحدة»

قال كثير: لقينى جميل مرة فسألنى: من أين أقبلت؟

قلت: من عند أبى الحبيبة – أعنى بثينة.

فسألنى: وإلى أين تمضى؟

قلت: إلى الحبيبة – أعنى عزة.

فقال: لابد أن ترجع عودك على بدئك فتستجد لى موعدًا من بثينة.

فاستحييت أن أرجع وعهدى بها الساعة. وألح قائلًا: لابد من ذلك. فسألته: متى عهدك ببثينة؟ فقال: فى أول الصيف وقد وقعت سحابة بأسفل وادى الدوم، فخرجت ومعها جارية لها تغسل ثيابها. فلما أبصرتنى أنكرتنى فضربت بيديها إلى ثوب فى الماء فالتحفت به، وعرفتنى الجارية فأعادت الثوب فى الماء، وتحدثنا حتى غابت الشمس، ثم سألتها الموعد فأنبأتنى أنَّ أهلها سائرون، ولم أجد أحدًا آمنه فأرسله إليها.

قال كثير: فاقترحت عليه أن آتى الحى فأتمثل بأبيات من شعر أذكر فيها هذه العلامة إن لم أقدر على الخلوة بها. فوافقنى، وخرجت حتى أنخت بالقوم، فسألنى أبوها:

مـا ردك؟ قلت: ثلاثة أبيات عرضـت لى فأحببت أن أعرضها عليك، وأنشدته وبثينة تسمع:

فقلت لها يا عز أرسـل صاحبـى
إليك رسولا والموكـل مرسـل
بأن تجعلى بينى وبينك موعـدًا
وأن تأمرينى ما الذى فيـه أفعـل
وآخر عهدى منك يـوم لقيتنـى
بأسفل وادى الدوم والثوب يُغسـل

فضربت بثينة جانب خدرها وقالت: اخسأ. واخسأ. فقال أبوها: مَهْيَم[1] يا بثينة! قالت: كلب يأتينا إذا نوم الناس من وراء الرابيـة. ثم صاحت بالجاريـة أبغينا من الدومات حطبًا لنذبح لكثير شاة ونشويها له!

فقلـت: أنا أعجل من ذلك، ورحت إلـى جميل فأخبرته، فعلـم أن الموعد الدومات، وخرجنا حتـى أتيناها، ثم جاءت بثينـة مع بنات خالتها الثلاث، فما برحنا حتى برق الصبح،

(١) مهيم: كلمة يمنية معناها: ما خطبك؟ وماذا بك؟

فما رأيت مجلسًا قط أحسن من ذلك، ولا رأيت مثل علم أحدهما بضمير الآخر.

«خداع سهل»

سعت أمة لبثينة بها إلى أبيها وأخيها، وقالت لهما: إن جميلا عندها الليلة!

فأتياها مشتملين على سيفين، فرأياه جالسًا حجرةً[1] منها يحدثها ويشكو إليها بثه. ثم قال لها: يا بثينة؛ أرأيت ودى إياك وشغفى بك ألا تجزينيه؟

قالت: بماذا؟

قال: بما يكون بين المحبين.

فأجابته مغضبة: يا جميل. أهذا تبغى؟ والله لقد كنت عندى بعيدًا منه، ولئن عاودت تعريضًا بريبة لا رأيت وجهى أبدًا.

فضحك وقال: والله ما قلت لك هذا إلا لأعلم ما عندك فيه؛ ولو علمت أنك تجيبنى إليه لعلمت أنك تجيبين غيرى، ولو رأيت منك مساعدة عليه لضربتك بسيفى هذا

(١) أى ناحية منها.

ما استمسك فى يدى، ولو أطاعتنى نفسى لهجرتك هجرة الأبد، أو ما سمعت قولى:

وإنى لأرضى من بثينة بالذى
لو أبصره الواشى لقرت بلابله
بلا، وبأن لا أستطيع، وبالمنى
وبالأمل المرجوِّ قد خاب آمله
وبالنظرة العجلى وبالحول تنقضى
أواخره لا نلتقى وأوائله

فقال أبوها لأخيها: قم بنا. فما ينبغى بعد اليوم أن نمنع هذا الرجل من لقائها.

«سكرة وصحوة»

رصد جميل بثينة فى نجعة لأهلها، حتى إذا صادف منها خلوة فى ليلة ظلماء ذات غيم وريح ورعد، سكر ودنا منها وحذفها بحصاة فأصابت بعض أترابها. ففزعت وقالت: «والله ما حذفنى فى هذا الوقت بحصاة إلا الجن!» وفطنت بثينة فصرفتها ناحية من منزلها، وبقيت مع بثينة أم الجُسير أختها وأم منظور. فقامت إلى جميل فأدخلته الخباء معها

وتحدّثا طويلًا، ثم اضطجع واضطجعت إلى جنبه فذهب النوم بهما حتى أصبحا.

وجاءهـا غلام زوجها بصبوح من اللبن بعث به إليها فرآها نائمة مع جميل. فمضى لوجهه حتى خبَّر سيده.

ورأتـه ليلى أخـت بثينة وكانت قد عرفـت خبرها وخبر جميل تلك الليلة، فاسـتوقفته كأنها تسأله عن حاله، وبعثت بجارية لها تحـذر صاحبتها، فجـاءت الجارية فنبهتهما، وصاحت بثينة بجميل وقد تبينت الصبح: نفسـك! نفسـك، وهو غير مكترث لتخويفها يتمثل لها بقوله:

لعمرك ما خوفتنى من مخافـة
بثين ولا حذرتنى موضع الحذر
فأقسم لا يُلفَى لى اليوم غـرةٌ
وفى الكف منى صارم قاطع ذكر

فأقسمت عليه أن يلقى نفسه تحت متاع البيت، وأفهمته أنها إنما تسأله ذلك خوفًا على نفسها من الفضيحة لا خوفًا عليه.

ففعل كارهـا، ونامت هى كما كانت وإلى جانبها أم الجسير. ثم أقبل زوجها ومعه أبوها وأخوها يأخذ بأيديهما ولا يشك فى

أنه سيطلعهما على ريبة كما أنبأه غلامه. فلما كشفوا الثوب إذا أم الجسير حيث كانوا ينظرون جميلًا! فخجل الزوج، وصاحت أختها ليلى: قبحكما الله! أفى كل يوم تفضحان فتاتكما ويلقاكما هذا الأعور - تعنى زوج بثينة - بكل قبيح؟

قال راوى القصة: وأقام جميل عند بثينة حتى أجنه الليل ثم ودعها، وانقطعا عن اللقاء إلى أن نسيت القصة!

«بين سلطانين»

كان عامر بن ربعى بن دجاجة واليًا على بلاد عذرة. فشكا إليه أهل بثينة جميلًا وقالوا: إنه يهجوهم ويغشى بيوتهم وينسب بنسائهم، فأباحهم دمه إن وجدوه عندهم، ونجا جميل بنفسه إلى اليمن فلم يزل بها حتى عزل ذلك الوالى وانتجع بنو عذرة ناحية الشام فارتحل إليهم.

«بثينة تنقد»

لقى جميل بثينة بعد تهاجر طال بينهما، فتعاتبا مليًا ثم قالت بثينة: ويحك يا جميل! أتزعم أنك تهوانى وأنت الذى تقول:

رمى الله فى عينى بثينة بالقـــذى
وفى الغر من أنيابهـــا بالقـــوادح

فأطرق طويلا يبكى. ثم قال: بل أنا القائل:

ألا ليتنى أعمى أصم تقودنـى بثينة لا يخفى على كلامهـا

فقالت له: ويحك!! ما حملك على هذه المنى! أو ليس فى سعة العافية ما كفانا جميعًا؟!

«خاتمة هوى»

روى أيوب بن عباية قال:

خرجت مـن تيماء فى أغباش السـحر، فرأيـت عجوزًا على أتـان، فتكلمت فإذا أعرابية فصيحة. فقلت: ممن أنت؟ قالت: عذرية.

فأجريت ذكر جميل وبثينـة فقالت: والله إنا لعلى ماء لنا بالخبـاب وقد تنكبنا الجادة[1] لجيـوش كانت تأتينا من قبل الشـام تريد الحجاز، وقد خـرج رجالنا لسـفر وخلفوا معنا أحداثًا، فانحدروا ذات عشـية إلى صرم[2] قريب منا يتحدثون

(١) الجادة: مستوى الطريق.
(٢) الصرم: الجماعة القليلة من الناس.

إلـى جوار منهم، فلم يبق غيرى وغير بثينة، إذ انحدر علينا منحدر من هضبة تلقاءنا. فسلم ونحن مستوحشون وجلون، فتأملته ورددت السلام فإذا جميل!

قلت: أجميل؟

قال: إى واللّه.

وإذا به لا يتماسك جوعًا. فقمت إلى قعب لنا فيه أقِط[1] مطحون، وإلى عُكة[2] فيها سمن وُرّب[3] فعصرتها على الأقط ثم أدنيتها منه وقلت: أصب من هذا. فأصاب منه، وقمت إلى سقاء فيه لبن فصببت عليه ماء باردًا فشرب منه وتراجعت نفسه.

فقلت له: لقد بلغت ولقيت شرًا فما أمرك؟

قال: أنا والله فى هذه الهضبة التى ترين منذ ثلاث ما أريمها أنتظر أن أرى فرصة. فلما رأيت منحدر فتيانكم أتيتكم لأودعكم وأنا عامد إلى مصر. فتحدثنا ساعة ثم ودعنا وشخص، فلم تطل غيبته أن جاءنا نعيه، فزعموا أنه قال حين حضرته الوفاة:

---

(١) الأقط: اللبن الجاف.

(٢) العكة: الزق الصغير.

(٣) الرب: ما يطبخ من التمر.

صرح النعى وما كنى بجميـــــل
وثوى بمصر ثواء غيـر قُفـــــول
ولقد يجر الذيل فى وادى القرى
نشوان بين مـــزارع ونخيـــــل
قومى بثينة فاندبـى بعويـــــل
وابكى خليلك دون كل خليـــل

وتحدث من شـــهد موت جميل بمصر أن جميلا دعاه فقال: هـــل لك فى أن أعطيك كل ما أخلّفه على أن تفعل شـيئًا أعهده إليـــك!... إذا أنا مت فخذ حلتى هذه التى فى عيبتى فاعزلها جانبًا ثم كل شىء سواها لك، وارحل إلى رهط بنى الأحب من عذرة، فإذا صرت إليهم فارتحل ناقتى هذه واركبها، ثم البس حلتى هذه واشققها، ثم اعل على شرف وصح بهذه الأبيات:

صرح النعى وما كنى بجميـــــل
وثوى بمصر ثواء غيـر قُفـــــول

إلى آخر الأبيات الثلاثة المتقدمة.

قال الرجل: فلما واريته أتيت رهط بثينة ففعلت ما أمرنى به جميل، فما استتمت الأبيات حتى برزت إلى امرأة يتبعها

نســوة قد فرعتهن طولا وبرزت أمامهن كأنها بدر قد برز فى دُجُنة وهى تتعثر فى مرطها حتى أتتنى فقالت: يا هذا! والله لئن كنت صادقًا لقد قتلتنى، ولئن كنت كاذبًا لقد فضحتنى!

قلــت: والله ما أنا إلا صادق، وأخرجــت حلته. فلما رأتها صاحت بأعلــى صوتها وصكت وجهها، واجتمع نســاء الحى يبكين معها ويندبنه حتى صعقت فمكثت مغشيًّا عليها ساعة، ثم قامت وهى تقول:

وإن سلوى عن جميـــــل لساعـــــةٌ
من الدهرِ لا حانت ولا حان حينهـا
سواءٌ علينا يا جميـــلُ بن معمـــــر
إذا مت بأساء الحيـــــاة ولينهـــــا